من المكتبة

محمد سبيلا

في إمكان تلاقي الغرباء: قراءة في كتاب «هايدغر والفكر العربي» 197

أنطوان سيف

شخصانية الحبابي وغدّيته: فلسفة بين القلق والأمل 201

محمد سبيلا*
Mohammed Sabila**

في إمكان تلاقي الغرباء

قراءة في كتاب «هايدغر والفكر العربي»

On the Possible Meeting of Strangers

A Reading of *Heidegger and Arab Thought*

الكتاب	:	هايدغر والفكر العربي
العنوان الأصلي	:	*Heidegger et la pensée arabe*
الكاتب	:	مشير باسيل عون
المترجم	:	إيلي أنيس نجم
مكان النشر	:	بيروت ، لبنان
تاريخ النشر	:	الطبعة الأولى، آب/أغسطس ٢٠١٥
الناشر	:	المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
عدد الصفحات	:	١٩٠

عبر احتياطات منهجية سميكة، يعالج مشير باسل عون، مؤلف كتاب **هايدغر والفكر العربي**، مسألة فكرية شائكة (بمعنى كثيرة الأشواك) بقدر نادر وعال من الاقتدار يعود إلى رسوخ قدميه في ثقافتين؛ فهو ابن الثقافة العربية الإسلامية المجيدة، وهو في الوقت نفسه سليل الثقافة الفلسفية الغربية وخليلها. ولعل هذا البحث الشائق هو زبدة الأبحاث التي أنجزها هذا المفكر عبر عقود عدة، سواء في بحثه المتميز في الدكتوراه في مفهوم المدينة في فلسفة هايدغر، أو في الدراسات الأخرى الدائرة حول الفكر العربي والتي سبق له أن نشرها.

وازداد هذا العمل دقة ووهجًا وأناقة بفعل العناية الفائقة التي بذلها إيلي نجم، المتمرس الحاذق بالفلسفة، في ترجمته المتميزة.

إن هذا الكتاب محاولة جريئة في البحث عن «إمكانات» التقاء ثم تلاق وتبادل بين فلسفة فيلسوف ألماني حديث وفكر عربي مطبوع بقوة بمسلّمات فكر ديني عميق وعريق.

* أستاذ الفلسفة الحديثة، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب.
** Professor of Modern Philosophy, Mohamed V University at Rabat, Morocco.

الشاهد على هذه الجرأة ليس فقط التلقي البارد والباهت، بل أيضًا التلقي الرافض أحيانًا لفكر فيلسوف أكاديمي ألماني معتز بجرمانيته وبمستلحقاتها، وحاصِر بل قاصِر للغة الفلسفة على اليونان والجرمان (لدرجة استهجان إمكان التعبير عن القضايا الفلسفية في لغات أوروبية نعتبرها نحن العرب أحد مصادرنا الكبرى للفلسفة، فما بالك بالعربية)، بل تُضاف إلى ذلك نزعته النقدية الراديكالية للعقل وتقويضه الأسس الفكرية العميقة والبعيدة لفكر العصور الحديثة وللحداثة، وهي الأقانيم التي تتطلع إليها جميع الثقافات التي تشعر بأنها في حاجة إلى الحداثة والعقل حتى تتحرر من شرطها التاريخي.

* * *

من أجل البحث عن بعض إمكانات التلاقي والتبادل، يُجري عون مقارنة بين بنيتين ثقافيتين مختلفتين، راصدًا من خلالها الخصوصيات والسمات المميزة لكل طرف، ومتتبعًا وملامسًا أيضًا بعض التقاطعات التيمية، ولا سيما في نقد مكانة الذات وفي أهمية اللغة. هذا من دون أن يغفل الفروق الأساسية بين فكر مطبوع بقوة بالتصورات الدينية للعالم والإنسان وفكر فلسفي تساؤلي ونقدي محوره مسألة الكينونة (أو الكون بلغة نجم).

في الأنطولوجيا الإسلامية، أو على وجه أدق في التصور العربي الإسلامي التقليدي للإنسان، يكون هذا الأخير في الأساس كائنًا مخلوقًا، بل الخليفة المفضّل على غيره لله. كما أنه كائن مستسلم كليًا لقدره الذي يمثّل المشيئة الإلهية التي لا راد لها، ومدعو إلى تأمل وتدبّر نظام المخلوقات المسخَّرة له ولنظام العناصر والكواكب والمخلوقات الأخرى، وإلى الانصياع الكامل للقدرة العلوية.

هذا الإنسان المسلم المنتقى كائن محظوظ لأن الرسالة الإلهية موجَّهة إليه، وعليه أن يقرأها. كما أن الدين الذي اختاره الله له وآثره به هو دين راسخ في الإنسان بالفطرة، بمعنى أن له أساسًا وجذورًا في النفس والجسم، وقيمته الفردية والجماعية إنما تتحقق باستيعابه النداء الإلهي وتطبيقه له تجاه نفسه وتجاه غيره (الصدقة والإحسان).

السمات الأساسية للإنسان في الإسلام هي كونه في الأساس مخلوقًا متميزًا بأنه خليفة الله. وهو كائن ضعيف لأنه من طين ومن حمأ مسنون، كما أنه في أحسن تقويم، وشاهد، بل خير شاهد على الوجود، وخاضع للمشيئة الإلهية.

أمّا الفلسفة الهايدغرية (بغضّ النظر عن مدى اكتمال متنها وعن التأويلات المختلفة لها)، فالإنسان فيها كائن في علاقة متميزة مع الكينونة، لأنه محطها ومكان حضورها ووعيها بذاتها عبره، وهو كائن ملقى به في الوجود أو في العالم (وربما لم يستعمل هايدغر مصطلح الخلق)، ومن ثم، فإن قلقه الوجودي الذي تغشاه مشاعر العدم هو الوجه الآخر للوجود، في الوقت الذي تفرض عليه مسؤولية الاختيار والقرار؛ فهو كائن عالمي وزمني وتاريخي.

هناك بُعد آخر في التصور الهايدغري للإنسان يمثّله مجمل انتقاداته للفكر الغربي، وهو البُعد الذي يوليه عون اهتمامًا خاصًا يعرضه لرسالة هايدغر حول النزعة الإنسانية.

يركز هايدغر نقده على الميتافيزيقا الغربية من حيث إنها تتسم بتناسيها المسألة الأساسية،

وهي مسألة الكينونة، وتركز على الكائن، وهذا هو مدلول العدمية التي تخترق الفكر الغربي منذ عهد الإغريق إلى الآن. كما يركز نقده على التصور العقلاني للإنسان المرتبط بفعالية الفكر التمثلي، وبالحداثة والعقلانية الاحتسابية التي سمّاها فيما بعد تقليد فرنكفورت العقلانيةَ الأداتية؛ فنسيان، أو تناسي الكينونة، مرتبط عضويًا بالتصور الأنطوثيولوجي والفكر التمثلي والعقلانية الاحتسابية وفكر السيطرة الكلية (أو الكليانية (أرندت)) الذي جسدته الميتافيزيقا الغربية. وهذه النظرة إلى الإنسان نظرة اختزالية لكائن ذي أبعاد وآفاق لامتناهية رغم تدانيه وتناهيه.

* * *

لعل أهم رسائل الكتاب رصْده أبرز الاستلهامات التي يمكن أن يفيد الفكر الهايدغري بها الفكر العربي على مستويين اثنين على الأقل:

ـ الانزياح عن واحدية الرؤية، والوثوقية الملازمة لها، والانفتاح على التعدد، والاختلاف والخروج من الأسيجة المغلقة ومن التأويل الأحادي والنهائي المقفل للنصوص (ص ٨٦) نحو بسط الطاقات الدفينة الكامنة في الفكر العربي واللغة العربية، والانفتاح على تعدد التجليات الإلهية (ص ٧٨).

ـ تحرير التصور اللاهوتي من النظرة الدهرية الحشرية والنفعية ومن العلاقة الاحتسابية القائمة على مقولات السببية والديمومة... (ص ٨٥).

لكن للإفسال الهايدغري أوجهًا أخرى في المجال السياسي العمومي الذي تحتل فيه السياسة موقعًا مركزيًا، وذلك بإعادة النظر في السياسة ذاتها من كونها مجرد هيمنة إلى اعتبارها اضطلاعًا متفَقًا عليه جماعيًا «بإقبال حقيقة الكائنات في الوجود التاريخي للشعب» (ص ٧٦) بدلًا من قصر السياسة على كونها مجرد «إدارة» لقطاعات الحياة الجماعية.

إن استلهام البُعد الأنطولوجي يمكن أن يحرر السياسة العربية تصورًا وممارسة، ويعيد إليها سمة الحقيقة والصدق، وذلك عن طريق:

ـ استبعاد التصور التقني للسياسة الذي يقوم على اختزال الكائنات إلى الأبعاد الضيقة للمشروع الاستثماري، وتحويل السياسة إلى مجرد إرادة هيمنة واستنفاع.

ـ إعادة الاعتبار إلى العمل الجماعي والبعد الاجتماعي في العمل السياسي، لتقوية المشاركة السياسية الواسعة في المسؤولية، وهو ما يحول دون التشظي الطائفي.

ـ استبعاد التصور التقني للديمقراطية وتحويل هذه الأخيرة من مجرد آلية تقنية إلى أداة لجعل الشعب مصدر قراره وقدره وصانعهما، ومالكًا ما يطلب منه أو ما يدعى إليه، ومقررًا القوانين الخاصة به.

ـ مواجهة الاستبداد السياسي (القومي الأيديولوجي والديني) الذي يجعل السلطة حكرًا على الحاكم أو الطبقة الحاكمة (ص ٧٨ـ٧٤) ويقصي الفئات التمثيلية الأخرى.

* * *

يمكن أن نقف هنا لحظة عند علاقة فكرة الديمقراطية بفكر هايدغر، لأن هذا الأخير يعتبر الديمقراطية جزءًا من منظومة أفكار وقيم تنحدر من عصر الأنوار، مثلما أن فكرة الديمقراطية

ودولة القانون هي في الحقيقة تعبير عن القدر (أو المصير أو الصيرورة) الحتمية لإرادة قوة تجد اكتمالها في التقنية الحديثة، التي هي بدورها اكتمال الميتافيزيقا الذاتية[1]، بل إن هايدغر عبّر صراحة، خلال ردّه على سؤال مجلة **شبيغل** عن قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، بأن الحل الأساسي لا يكمن هنا بل في الانتباه إلى مخاطر التقنية، وهو ما يعني أن هايدغر ليس من رواد الديمقراطية.

أختم بالإشادة بدقة الترجمة، وبالتعبير في الوقت نفسه عن اختلافي مع المترجم نجم في بعض اختياراته المصطلحية، ومن بينها اعتماد كلمة «كون» كمقابل لكلمة Etre، وذلك لاعتباراته عدة، أهمها أن كلمة كون استقرت في التداول العربي الحديث كمقابل لكوسموس، أي لمجموع الكائنات والموجودات، وهو ما يجعل المتلقي أو القارئ العربي في حيرة كبيرة من أمره بسبب العتمات التي تلقيها الكلمة هذه على مجمل النص. والمترجم في ذلك على اتفاق مع عدد من المترجمين العرب لنصوص هايدغر، أذكر من بينهم إسماعيل المصدق (المغربي) وموسى وهبة وغيرهما، وفي تقديري أن المصطلح العربي الأنسب هو كينونة.

أمّا المصطلح الثاني الذي أجادل فيه نجم، فهو مصطلح الاقتبال؛ فلعل المقابل العربي الأنسب لكلمة Réception هو التلقي الذي فرض نفسه كمقابل مقبول في التداول العربي المعاصر.

هناك مصطلح ثالث لا أوافق المترجم على اختياره هو الجود كمقابل لكلمة Donation، لأن المقابل العربي المختار ذو دلالة أخلاقية قوية تقارب الكرم، في حين أن المقصود هو فعل العطاء مجردًا عن دلالاته الأخلاقية.

لكن، إن التحفظات هاته لا تجادل في القيمة والمكانة الرائعة للنص وللترجمة العربية معًا.

الهامش

(١) انظر: Etienne Ganty, *Penser la modernité: Essai sur Heidegger, Habermas et Eric Weil,* preface de Gilbert Kirscher, philosophie; 4 (Namur: Presses universitaires de Namur, 1997), p. 697.